خطبة صلاة الجمعة 11/ 10/ 2024 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(لا تجزع، إذا لم يُسْرِع الله نقْمته في الظالمين)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 139-140]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم: **«واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العُسْر يسراً، ولن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرَينِ»** [جامع الأصول].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال لابنه عند الموت: (يا بُني إنك لن تجدَ طَعْمَ الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك).

عنوان خطبة اليوم:

لا تجزع، إذا لم يُسْرِع الله نقْمته في الظالمين

أيها الإخوة:

يشتد أذى الصهاينة المجرمين وحلفائهم الفاجرين الغربيين على إخواننا في فلسطين ولبنان، وامتدت يد إجرامهم إلى أهل بلدنا، ويرى العالَمُ أمَّاً تَدفنُ ولدَها، وأباً يزيحُ الرّكامَ عن رأس ابنته، وزوجاً يَنْعَى

زوجتَه وأولادَه، وأخاً يرثي أخاه وجاره، وطفلاً يبكي حيَّه ومدرستَه، وطبيباً محاصَراً في مشفاه أو متأسفاً لتدمير الصهاينة لها.

فيسأل المؤمنُ ربَّه يقول: متى نصر الله!

ويضطرب آخرون فيقولون: لماذا يتركنا الله، ولماذا يؤخِّر انتقامَه من الظالمين!

أما استنزال المؤمنين النصر من ربهم واستعجالُهم له فهو أمر مشروع، ففي صحيح البخاري عن خباب رضي الله عنه قال: (شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: «**قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

ويخبر الله تعالى في سورة البقرة أنّ المؤمنين حين تمسّهم البأساء والضرّاء يستبطؤون النصر فيأتيهم تعزيز اليقين بقربه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

فنصرُ المؤمنين والانتقامُ من المجرمين حقٌ ثابتٌ أوجبَه الله تعالى على ذاته العلية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47] ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22] ولكنّ الله سبحانه وتعالى يختار بحكمته الكاملة زمانَ النصر ومكانه ورجاله وطريقته، وما على المؤمنين إلا يطمئنوا لوعد الله ووعيده، ويعقلوا سنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول، ويصبروا على البأساء والضراء، ويثبتوا على الحق الذي يحملون، ويناجزوا عدوهم ويرهبونه، الصاع بالصاع والكيل بالكيل ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 104].

فسؤالُ المؤمنِ ربّه تعجيلَ النصر مع اطمئنانه به وفهمه لسننه وإعداده عدّته يبقى سؤالاً مشروعاً مرضياً، وهو يختلف عن سؤال مَن اضطرب فقال: لماذا يتركنا الله، ولماذا يؤخر انتقامه من الظالمين، ولماذا لا نرى أفعاله في إغاثة المظلومين والانتقام من الظالمين.

لماذا يترك الله سبحانه وتعالى أهل الباطل والظلم والفساد، يعيثون في الأرض فسادًا، فيبطشون ويقتلون ويدمرون ويفتنون المؤمنين، ولا يأخذهم في الحال؟

والجواب: أنّ ذلك منه سبحانه وتعالى لحكم جليلة وغايات عظيمة سأذكر عشرةً منها يسمح بها المقام على أن الله تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] فهو المالك سبحانه، وللمالك التصرفُ بملكه كيف شاء، وكل أفعاله وأقواله حكمة، عَلمَها من عَلمَها وجهلَها من جهلَها.

فمن حِكَمِ تأخير الله تعالى نصرَ المؤمنين وإهلاكَ الفاجرين:

أولًا: **إظهار الله تبارك وتعالى لعباده حلمه وصبره**: يُقدِّرُ اللهُ بقاء الباطل وأهلِه؛ لأنه الرحمن الحليم، يمهل الظالمين والطغاة والمتكبرين، ولا يأخذهم مباشرةً، بل يصبر عليهم لعلهم يتوبون عن غيّهم وظلمهم وكفرهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: 10] فانظر إليهم يفتنون المؤمنين في دينهم، ويُمْهِلهم ويحلُم ويصبر عليهم؛ لعلهم يتوبون ويرجعون، بل يرزقهم، سبحان الرحمن! وتأمل إذا كانت هذه معاملة الله الطغاة والمتكبرين والظَّلَمة، فكيف تكون معاملته لأهل الإيمان؟ وإذا علِم المؤمن ذلك، زاد طمعه في رحمة الله وجوده وكرمه.

ثانيًا: **اختبار أهل الحق**: يُقدِّرُ الله بقاء الباطل وأهله؛ اختبارًا لأهل الحق؛ فالله تعالى يختبر أهل الحق بأهل الباطل، يختبر صبرهم وإيمانهم ويقينهم وجهادهم، فإن وُجِدَ الصبر كان معه كل خير؛ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200] ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141]، ومن معاني التمحيص: الاختبار.

ثالثًا: **لأن الانتصار بعد اليأس له طعم خاص**: يُقدِّرُ الله بقاء الباطل وأهله؛ لينصر الله حزبه من أهل الإيمان وهم في غاية الضعف، وقد انقطعت بهم الأسباب، واشتد عليهم الاضطهاد، وليس لهم إلا اللجأ إلى الله، فينصرهم الله على عدوِّه وعدوِّهم في وقت لا يتوقعون فيه الانتصار، فيكون للانتصار مذاق آخر؛ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110].

رابعًا: **لتظهر بطولات أهل الإيمان**: يُقدِّرُ الله بقاء الباطل وأهله؛ لتظهر بطولات أهل الإيمان، فهذا الشهيد الساجد، وهذه المستعدةُ للموت في سبيل الله ولو فقدَتْ في سبيل ذلك جميع أولادها، وهذا الصائح بغيره لكيلا تخور عزيمته فكلنا مشاريع شهادة، وهذا الثابت فلا يبدّل ولا يغيّر مع وجود البلاء والمحن، وهذا المتحمل للبلاء والاضطهاد كالطود الشامخ... ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31].

خامسًا: إظهار قوته عز وجل: وذلك عندما يأخذ الباطل وأهله وهم في تمام صولتهم وجولتهم، وقوتهم وجاههم، وقد اكتملت أسبابهم، وارتكزت دعائمهم، فيأخذهم الله عز وجل أخذَ عزيز مقتدر؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]، فتظهر قوة الله عز وجل وعزته عندما يقصم الطغاة في عز صولتهم وارتفاعهم.

سادسًا: يتخذ الله ويصطفي شهداء: يُقدِّرُ الله بقاء الباطل وأهله؛ ليجتبي سبحانه وتعالى شهداء يموتون في سبيل الله، فيجازيهم الله الخير الكبير الذي لا تقوم له الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140].

سابعًا: تكفير السيئات ورفعة الدرجات: يقدر الله بقاء الباطل وأهله؛ ليكون ذلك تكفيرًا لسيئات المؤمنين ورفعةً لدرجاتهم؛ كما في الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجةً، أو حط عنه بها خطيئةً**» [مسلم] وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**» [أبو داود]، بينما يزداد أهل الباطل إثمًا.

ثامنًا: تنقية الصف المؤمن من أهل النفاق: يُقدِّرُ الله بقاء الباطل وأهله؛ ليفتضح أهل النفاق، ويظهر وجههم الكالح، وموالاتهم للكفار، وتثبيطهم لصف المؤمنين الموحدين؛ فيظهر نفاقهم في فعالهم، ولحن قولهم، فيفتضح مكنون صدورهم وقلوبهم العفنة.

تاسعاً: البلاء يُربّي الرجال: إذ البلاء مصنع الرجال، ولذلك اختار الله تعالى لسيد الرجال رسول الله صلى الله عليه وسلم العيش الشديد الذي تخلَّلته الشدائد منذ الصغر؛ فمات أبوه ثم أمه، ثم جده، ثم عمه، ثم رعى الغنم، ثم اشتغل بالتجارة، ثم أوحي إليه فعاداه الأقربون وقلاه الأبعدون، وحاصروه وعذبوه وأخرجوه وحاربوه، فكان الله تعالى يهيئ نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الشدائد وبهذه التربية لأجل المهمة العظيمة التي اصطفاه لها؛ وهي النبوة والرسالة.

وكذلك الصحابة رضي الله عنهم عاشوا في شدة العيش والبلاء؛ تربيةً من الله سبحانه وتعالى لهم لحمل لواء الدين، وحمل هذه الرسالة التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، ولتبليغ هذه الرسالة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ولفتح الفتوحات، فالبلاء يربي الرجال ويصنعهم.

عاشراً: تعلُّق القلوب بالله سبحانه وتعالى: يقدر الله بقاء الباطل وأهله؛ ليزداد تعلق قلوب المؤمنين بالله عز وجل؛ فالإنسان عندما تضيق عليه الأمور يزداد تعلّق قلبه بربه سبحانه وتعالى، وينتظر

الفرج من ربه وخالقه ومولاه، ولا سيما إن طال البلاء، وضعف الاحتمال، وقل النصير، فإنه يلجأ إلى ربه سبحانه وتعالى، ويعلم أنه لا محيص ولا مفر ولا مخرج له من البلاء إلا بالله سبحانه وتعالى، فيعلق قلبه بربه، فكم من عبدٍ علّق قلبه بالله سبحانه وتعالى بعد البلاء، فسبحان رب العرش العظيم!

أيها الإخوة:

هذا غيض من فيض في الجواب على السؤال: لماذا لا يسرع الله نقمته في الظالمين، فلا تجزعوا واطمأنوا واستعدوا وسلوا الله النصر للمؤمنين والهلكة للكافرين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

(من المراجع: مقالان لمحمد أنور مرسال، ومحمد خير موسى)

والحمد لله رب العالمين